فقه النفوس وتزكيتها

في ضوء القرآن والسنة

- كيف نحقق التقوى في نفوسنا
- احذر خصائص نفوس المنافقين
- كيف تمتلك نفساً مستقيماً
- أحوال النفوس عند المعصية وعند التوبة
- تربية النفوس ومحاسبة النفس

جمال ماضي

دار المدائن

دار الدعوة

من مرفوعات

مثنى النعيمي

اسكنه الله ووالديه الفردوس الأعلى

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء عام
إلى الشباب المسلم

أيها الشباب المسلم :

إن للأمة في عنقك ديناً ، فأد هذا الدين ، من دمك الطاهر ووقتك الغالي ، وروحك الكريمة ، ولتكن حياتك مليئة بالعمل ، محفوفة بالنضال ، مزدحمة بجلائل الأعمال ، ولتكن شعارنا دائماً :

بنيت بعزتي صرح المعالي
وسوف أسير في ركب الرجال
أقدم في سبيل الخلد نفسي
وأرخص ما حييت دمي ومالي

فقه النفوس وتزكيتها

في ضوء القرآن والسنة

كافة حقوق الطبع محفوظة
الطبعـــة الأولى
١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م

طبعة مزيدة ومنقحة

رقم الإيداع القانوني
٤٦٦٦ - ٨٣

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع
٢ شارع منشا - محرم بك - الأسكندرية
تليفون: ٣٩٠١٩١٤ - فاكس: ٥٩٠١٦٩٥

إهداء خاص
إلى ... صلاح جديد

يا صلاح الدين ...

يا من تعد لقدرك

انهض فقد حان وقتك ...

أما تسمع صوت المقدسات ينادى الأمة الإسلامية :

هـاتـى صـــــلاح الـديـن

ثـانـيـــــة فـــــيـنـا

وجـــــــــددى حـطـيـن

أو شـــــــيـــــه حطينا

هيأ الله لنا ولك الخير، ووفقنا إلى السداد.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده لا شريك له ...

والصلاة و السلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم .

وبعد .

في ليلة يفرق فيها كل أمر حكيم ، اتصلت السماء بالأرض فنزل جبريل الأمين على قلب محمد ﷺ ، بالكتاب الرباني و القرآن العظيم ، والهدى القويم .

وظل على مر أعوام احتفال سنوي يقام بأمر من رب العزة تبارك وتعالى في هذه الليلة التي هي خير من ألف شهر .

وذلك لقيمة القرآن الكريم ، فما أحوجنا أن ننظر في القرآن وأن نتعرف على ما به من كنوز ... ففيه أنوار ربانية لا يعلمها إلا من تذوقها .

وقد حوى القرآن حياة حافلة بالحركة و الحيوية لأنواع عديدة من النفوس البشرية ، عرضها الله عز وجل بإعجاز القرآن الباهر ، وبعلمه بأغوار النفس البشرية . ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾.

ثم جاءت السنة تفسر و السيرة توضح فإذا بنفوس الناس عارية أمام هذه الحقائق وهذه محاولة متواضعة نسأل الله فيها العون و التوفيق و السداد.

وهي عرض لقليل من كثير الكنوز التي في القرآن و السنة ، لبعض من النفوس البشرية ، ولا أقول قد استوفيت الموضوع من جميع جوانبه ولكن حسبي أن طرقت الموضوع من أحداث السيرة الناطقة .

وقد استفدت من كثير ممن تعرضوا لشرح هذا الجانب من أجلاء العلماء وفضلاء المجاهدين جزاهم الله خير الجزاء.

فقمت بجمع وترتيب هذه الأنواع مضيفاً إليها أمثلة حية من القرآن و السنة بروح السير إلى الله و الاهتداء إلى طريقة.

والله أسأل أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه ، وأن ينفع به المسلمين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ...

جمال ماضي

أولاً : فقه النفوس

وقفات مع النفوس

الوقفة الأولى :

لهذا القرآن كنوز وأسرار ، فمن الفائز بها ؟ ومن يستحقها ؟ ولمن يمنحها القرآن ؟.

وكأني بالإجابة تقول : إن هذا القرآن لا يعطي كنوزه ولا أسراره إلا لمن يستحقها ...

* وهم أصحاب العقول والأفهام الذين ينظرون إلى القرآن وإلى آياته، فيحولونها إلى تحقيق وتطبيق وتنفيذ، فهم الآيات المتحركة ، ودلائل القدرة الحية ، و القرآن الذي يعيش بين الناس وفي الناس .

* وهم الذين ينظرون إلى النماذج البشرية الواقعية التي بينها رب العزة ، فيستلهمون منها الدروس ، ويعيشون بها سلوكاً نابضاً بالحياة و الحركة و الحيوية.

* وهم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، و الاتباع أخص صور العمل ، وعند التطبيق يفيض عليهم القرآن بأنواره وبهائه وسحره .

الوقفة الثانية :

هذه النفوس سواء كانت لأفراد أو جماعات هي نماذج متحركة واضحة مرتبطة أشد الارتباط بواقع أنفسنا ومجتمعنا ، بل وكل مجتمع يجيد الأخذ من القرآن و السنة و التعرف على كنوز الإسلام.

* فهي نماذج لنفوس أفراد أحاط بها حظ الشهوة ومتاع الدنيا وزينتها، وحاصرها الشيطان و الهوى فخرجت من براثن هذا الحصار الرهيب ، إما صالحة قد اهتدت بفهمها السليم إلى الحق ، ورزقها الله اتباعه ، وإما عكس ذلك .

* ومن ثم فالناظر لها و الدارس لأحوالها يخرج بالدرس ليقتدي بالصالح منها فيتبعه، ويطبقه، وينقلب إلى نفسه يصلحها ، ويرى كذلك آية الله في معالجة المعوج من هذه النفوس الملتوية و الضعيفة.

* وآية الله واضحة وهو يعالج التواء هذه النفوس بالدواء الذي يقضي تماماً على المرض ، ولم لا ؟... وهو سبحانه الذي خلقها ويعلم سرها و نجواها وقد ألهمها فجورها وتقواها.. وهو الذي يعلم ما تخفيه وما تبطنه .. وهو أقرب إليها من حبل

الوريد .

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾

ولذا فليتعمق ايماننا بدواء الله الذى يجتث العلة من جذورها ، ويخفى الداء فلا يكون له أثر ، ومن ثم يقوى أملنا فى الله وثقتنا به تعالى وثقتنا فى أنفسنا لحظات الضعف .

الوقفة الثالثة:

ثم إن هذه النفوس قد تعددت أنواعها فى ضوء القرآن و السنة فنرى المهتدية والمطمئنة و المؤمنة و الراشدة و العاقلة و الواعية و السخية و المناضلة و المجاهدة ، والأخرى الملتوية و المنحرفة و الفاسدة و المنافقة و الكافرة و المتخاذلة و الشحيحة.

* كل هذه الأنواع لتكون بمثابة مرآة للناظر فيرى أى نوع من هذه الأنواع يجد نفسه ؟ وهذه نعمة بل آية من آيات الله ، لتتعرف على أنفسنا ونتقى المعصية ونتمكن من الطاعة ، ونحظى بالطمأنينة و السكن .

* وكذلك تتيح للناظر لها الإجابة الأبدية الخالدة على السؤال المتكرر : كيف يكون الانتصار ؟.

فهذا رسول الله ﷺ يقود موكب الحق وفئة الصلاح المؤمنة الصادقة إلى أن يأتيه التمكين و الانتصار ، ولكن بعد إحدى وعشرين عاماً من الإيذاء و التعذيب و النفى و التشريد و الهجرة و الجهاد ، ثلاثة عشر عاماً فى مكة ، وقد أحاطت به الأخطار وأحاط بها ، وثمانية أعوام فى المدينة بين مشاق وصعاب حتى كان يوم الفتح يوم أن دخل الناس فى دين الله أفواجاً ... فبعد أن شق الرسول ﷺ بموكب الحق الصخور و الأشواك بصلابة وثبات وايمان ، كان الدرس « الثقة الكاملة بأن العاقبة للمتقين » .

و النصر و التمكين رهين بوجود التقوى التى ينهار أمامها الباطل ، ففى جنبات مكة حمل الهواء مسروراً صوت النبى ﷺ وهو يردد: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ الإسراء / ٨١ .

وثمة انتصار آخر حينما تنكشف حقائق النفوس أمام هذه المرآة التى حوت أنواع النفوس كما عرضها الله ... ذلك الانتصار على الشيطان وركبه وحزبه ، فمن خلال هذه النماذج ترى كيف خرجت من معركتها مع الشيطان والهوى قوية صلبة ، فهيهات لكيده أن يتمكن منهم ، فليس له عليهم من سلطان.

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ... ﴾ الحجر / ٤٢ .

فانقلبوا للإصلاح سواء كان فى واقع أنفسهم أو فى واقع عصرهم ، فتركوا الآثار

الصالحة في أي مكان حلوا فيه تتحدث عنهم وتنطق بانتصاراتهم.

وهكذا إلى يوم الدين تتكرر النماذج ، و التمكين مرهون بالتقوى ، تلك الحقيقة الأبدية ، تأمل لهذه النماذج:

﴿ وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ﴿١٣﴾ ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾ إبراهيم ١٣: ١٤ .

نعم ذلك : التمكين و الانتصار .. للمتقين ، الذين يراقبون ربهم ، ويخشونه بالغيب ، ويطهرون أنفسهم من الآثام و الذنوب ، فهم أهل الآخرة ... الفائزون.

الوقفة الرابعة :

* وربما يسأل سائل كريم حينما عرض الله سبحانه وتعالى مثل النفوس السيئة والملتوية و الفاسدة عرضها بأبدية السوء و الانحراف فيها ، فلماذا لم يهدها إلى طريق الحق ؟.

وحينما نتأمل حقيقة هذه النفوس نفجع بهذه الحقيقة الأبدية وهذا إنذار خطير للمتأمل .. فمهما تطاول عليها العمر ، وطال الزمن هي كما هي لم تختلف.

هذا فرعون وذاك قارون وهامان وأبو جهل وأمية زعماء الكفر وابن سلول وغيرها كثير ... مثل ناطق لهذه الحقيقة.

وإنما كان ذلك لمركبات النقص في داخل هذه النفوس ، فهناك حد منه يبدأ الإصلاح و بالتالي التعرض لقدر الله في الهداية ، هم لم يصلوا إليه من واقع كفرهم الشديد وإعراضهم الأشد...

* ويسأل آخر :

كيف ذلك و القرآن يهدي للتي هي أحسن ؟

وتتحدد الإجابة بهذا التساؤل : القرآن يهدي من ؟

- إن القرآن يهدي من اهتدى به ونفذه وحقق تطبيقه.
- إن القرآن يهدي من عايشه واستمد العون من الله .
- إن القرآن يهدي من ارتبط به مصيراً وقدراً ورأى أن صلاح دينه ودنياه فيه.
- إن القرآن يهدي من استمع دائماً إلى الله، واستشاره في كل صغيرة و كبيرة ، ومن هنا يظفر بالدواء النافع و الشفاء و الرحمة ، يقول تعالى : ﴿ ونُنزِّلُ من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين... ﴾ الإسراء / ٨٢ .

•• وأخيراً :

هيا ـ أيها القارىء الكريم ـ فى جولة مع النفوس فى ضوء القرآن و السنة ، عسانا بعد هذه الوقفات أن نبدأ الجولة ، ومعنا الزاد و المعالم و الومضات التى تنير الطريق ، فنسير على بينة ووضوح.

نسأل الله تعالى أن يهبنا نفوساً طيبة مطمئنة ، تعيش مع الوحى .. اللهم اعط نفوسنا تقواها.. زكها أنت خير من زكاها .. أنت وليها ومولاها..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ...

★★★

المتقون

هذه النفوس العاقلة المتفتحة ، وصفها الله في كتابه قائلاً :

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ
الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ
وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ
وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ
وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ
أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ البقرة (١-٥) .

فبهذا التحدي الظاهر لأهل العربية أن يأتوا بمثله كان هذا الكتاب الرباني العظيم الشأن ، فهو حق لا لبس فيه ولا باطل ولا غموض ، ثم أنه صدق لا كذب فيه ، فهو كالغيث من السماء و النفوس هي الأرض التي تستقبل الغيث ، فتنبت وتخرج ثمارها الطيبة ، تلكم النفوس الصالحة التقية ، فما هي ؟

* هي نفوس تتقبل الحق وتتشرب بالهداية وتؤمن بكل ما جاء في القرآن فهي قرآنية، صنعها الله على عينه ، سماها المتقين ، وبين صفاتهم الخمس ثم أصدر أمراً إلهياً وحكماً ربانياً بأنهم : ﴿ ... هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .

فيا بشراه من نفوس ويا بشرى أصحابها بحكم الله فيهم ، وما ينتظرهم يوم الدين.

* وهذه صفاتهم الخمس ما هي إلا أركان يتكون في النهاية منها هيكل متكامل لهذه النفوس التقية النقية الطاهرة.

تحيط بها الصعاب وتكافح الهوى و الشيطان و الدنيا وزينتها وتخرج منتصرة بالحق، يقول تعالى:

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝٤١ ﴾ النازعات (٤٠ - ٤١) .

وكأني بعمر بن الخطاب أمير المؤمنين وهو يسأل أبي بن كعب رضي الله عنه قائلاً : ما التقوى؟

فأجاب أبي : أما سلكت طريقاً ذا شوك؟

قال عمر: بلى

قال أبي : فما عملت؟

قال عمر : شمرت ، واجتهدت.

قال أبي : فذلك التقوى.

فهذا طريق الايمان تثبت في جنباته الذنوب و المعاصي و الشهوات كما تثبت الأشواك في الطريق وكما ترفع ثوبك تتقي الأشواك تجاهد نفسك اتقاء الذنوب و الآثام . فواشوقاه إلى صفاتهم لنكون منهم.

ويمكننا أن نجمل هذا النوع في الآيات الكريمة في ثلاث صفات:

أولاً: البصيرة

في الايمان بالغيب و اليقين بالآخرة

ثانياً: الطاعة

في إقامة الصلاة و الجود.

ثالثاً: السماحة

في الايمان بالقرآن وجميع الرسالات وذلك بالخلق الحسن و الحب الصادق.

أولاً: البصيرة

و البصيرة تعني الايمان العميق و التسليم للوحي ، و الانقياد للحق ، وبها يتميز أهل التقوى عن غيرهم ، فهم ينتقلون عن دنيا الناس و يعيشون في دار غير الدار ، ايماناً بالغيب وخشية لربهم، ويقيناً بالآخرة.

١- الإيمان بالغيب

* و الإيمان بالغيب أن تؤمن بالله سبحانه فلا يتأثر ايمانك بشبهة تعارض ما وصف الله به نفسه ووصفه به نبيه ﷺ ، فترى الله في علياته بصفاته وهو سبحانه يصرف الكون في دقة وحكمة ولا تقف بالبصر المحدود.. ترى الله في كل شئ تراه في الليل إذا يغشى ، وفي النهار وفي الشمس و القمر و الفجر ، تراه في أحداث الزمن ، تراه في السماء المرفوعة والأرض المبسوطة ، ﴿ ... فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ المؤمنون/ ١٤ .

ويقول الإمام ابن القيم في هذا المعنى :

« وهو كما وصف نفسه في كتابه وفوق ما يصفه به خلقه ، حي لا يموت ، قيوم لا ينام ، عليم لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات و الأرض ، بصير يرى دبيب النملة

السوداء ، على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ، سميع يسمع ضجيج الأصوات ، باختلاف اللغات ، على تفاوت الحاجات ، تمت كلماته صدقاً و عدلاً ، وجلت صفاته أن تقاس بصفات خلقه شبهاً ومثلاً ، وتعالت ذاته أن تشبه شيئاً من الذوات أصلاً ، له الخلق و الأمر وله النعمة و الفضل ، وله الملك و الحمد ، أول ليس قبله شيء ، آخر ليس بعده شيء ظاهر ليس فوقه شيء ، باطن ليس دونه شيء .

كل شيء من مخلوقاته دال عليه ، ومرشد لمن رآه بعين البصيرة إليه ، خلق الخلق لقيام توحيده وعبادته، وأسبغ عليهم نعمه ليترسلوا بشكرها إلى زيادة كرامته ، وضمن الكتاب الذي كتبه : أن رحمته تغلب غضبه ...» (مدارج السالكين الجزء الأول ص ١٢٤) .

وهذا الايمان بالغيب يعني الايمان بالقول و العمل ، و الاعتقاد حتى يصل صاحبه إلى تمام الخشية من ربه ، و الخشية أخص من الخوف ، فالله عز وجل جعلها للعلماء به في كتابه فقال : ﴿ ... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ... ﴾ (فاطر : ٢٨) .

وذلك لأنه خوف مقرون بمعرفة وعلم وبصيرة ، يقول ﷺ : « إني أتقاكم لله ، وأشدكم له خشية » .

وجملة الخشية كما قال شيخ الإسلام (ابن تيمية) : ما حجزك عن محارم الله (المدارج الجزء الأول ص ٥١٤) .

وياله من أجر كبير ومغفرة لهؤلاء الذين يؤمنون بالغيب ويحققون الخشية ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (سورة الملك آية ١٢) .

* والإيمان بالغيب أن تؤمن برسول الله ﷺ وأنت لم تره ، وتصدقه وأنت لم تشاهده ، وتؤمن بما قال وأنت لم تسمعه منه ﷺ ، وتقتدي بمواقفه ولم تشاهدها ، وتتبعه حياً ولم تسمعه، يروى لنا أبو عبيدة بن الجراح :

« تغدينا مع رسول الله يوماً فسألته : يا رسول الله هل أحد خير منا ؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك . قال : نعم قوم من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني ».

أولئك الذين يصدقونه ويتبعونه ويؤمنون به حياً وصدقاً واقتداءً وهم لم يروه .

أولئك خير من جيل أسلم مع النبي ﷺ وجاهد معه ، أي شرف لهم وأي منزلة هم عليها ، يؤمنون برسول الله ﷺ بالغيب ولم يروه...

وبالإيمان بالله وبرسوله ﷺ بالغيب تتحقق بوادر التقوى في النفس ، فيعيش صاحبها مع الأمر عاملاً ومع النهي هارباً.

يقول ﷺ : « لن يبلغ أحدكم أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس ».

ولن يأتي ذلك إلا بالإيمان بالغيب ، خشية لله و اقتداء برسوله ﷺ .

٢ - اليقين بالآخرة

يقيننا بالآخرة يتقلب بين مراتب ثلاث..

الأولى : علم اليقين ويأتي عن الخبر.

والثانية : عين اليقين حين تتجلى حقيقة المخبر عنه للقلب حتى يصير العلم به عين اليقين.

والثالثة: حق اليقين وذلك حين يباشره ويلابسه فعلمنا بالآخرة وبالجنة و النار الآن علم يقين ، فإذا أزلفت الجنة للمتقين في الموقف ، وبرزت الجحيم للغاوين ، وشاهدوها عياناً ، كان ذلك عين اليقين ، يقول تعالى: ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ (التكاثر ٦-٧) ، فإذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار فذلك حق اليقين .

وهذا اليقين بالآخرة هو المحرك نحو الجهاد و العمل ، فأول من استشهد في سبيل الله في بدر دفعه اليقين بالآخرة إلى حسن صنيع وجميل موقف، لن ينساه التاريخ إلى يوم الدين ، فقد خرج النبي ﷺ يهيئ أصحابه للقتال ،وألقى عليهم قبيل المعركة كلمة قال فيها : « و الذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة ».

وهنا ظهر نموذج من اليقين بالآخرة فقد كان عمير بن الحمام واقفاً في الصف ، وفي يده تمرات يريد أكلهن ، ولكنه بعد أن سمع كلمة الرسول ﷺ يقذف بهذه التمرات قائلاً :« بخ بخ ، فما بيني وبين الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ». ثم أخذ سيفه وغاص في المشركين يقاتل طالباً الجنة حتى قُتل.

وهكذا بالإيمان بالله ورسوله و اليقين بالآخرة ، يتأتى للنفس البصيرة ، فترى غير ما يرى الناس ، ويعيش فيما لا يعيش الناس ، ويفتح أمامها طريق التقوى ، وتلكم صفات النفوس التقية.

ومع الصفة الثانية وهي الطاعة.

ثانياً : الطاعة :

وفي ضوء الآيات نجد أن الطاعة عند هذه النفوس قد تجلت في إقامتهم للصلاة وتحقيقهم للجود وذلك بالانفاق في سبيل الله .

١- إقامة الصلاة

وإقامتها تعني أداؤها في أوقاتها بتمام ركوعها وسجودها وسننها وفرائضها، وبكامل الخشوع و الوجل وحضور القلب، وبذلك تتجه هذه النفوس لله وحده، فلا باب إلى الله إلا الصلاة، فيتصلون بربهم على مدار الليل و النهار.

يقول صاحب الظلال (الجزء الأول ص ٤٠) : « و القلب الذي يسجد لله حقاً ويتصل به على مدار الليل و النهار، يستشعر أنه موصول السبب بواجب الوجود، ويجد لحياته غاية أعلى من أن تستغرق في الأرض وحاجات الأرض، ويحس أنه أقوى من المخاليق لأنه موصول بخالق المخاليق».

* هذه النفوس ملء صلاتها الخشوع قال ابن عباس رضي الله عنهما « ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها» ، وذلك لأن الصلاة هي هدية الرب إلينا وهديتنا إلى الرب، يقول الإمام ابن القيم : « والله طيب لا يقبل إلا طيباً وليس من العمل الطيب: صلاة لا روح فيها ».(المدراج ج ١ ص ٥٢٧) وروى أن أحد العباد كان إذا دخل بيته، صمت وسكت من في البيت، من هيبته، فإذا دخل في الصلاة تحدثوا وتكلموا، لعلمهم أنه في عالم آخر لحال خشوعه.

* وكذلك يكون الاستعداد للصلاة بالخوف وحضور القلب، فقد كان علي بن الحسن رضي الله عنهما إذا توضأ اصفر لونه فقيل له : ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟

فقال:

« أتدرون بين يدي من أقوم »

وحين الصلاة يكون مقيمها بين خوف ورجاء يخشى من تقصيره يحرمان الأجر ويرجو لصلاته الثواب و الأجر.

** ومن ثم يكون في دنيا غير دنيا الناس، فإذا سمع النداء تذكر نداء القيامة، وإذا ستر العورة يتذكر عورات باطنه وستر الله لها، وعند القبلة يتذكر أن صرف الوجه إلى الله يجلب صرف القلب إليه، وعند التكبير لا يكذب اللسان فلا يوجد في قلبه شئ أكبر من الله ثم يستشعر حين السجود بأن الفرع لابد أن يعود إلى أصله وهو فرع وأصله التراب، فمسه الأرض يتذكر الموت وأنه لا محالة إلى تراب، فيصلي صلاة مودع راحل، فيها الخشوع و الطمأنينة و الوجل و الخشية.

وقد قرأ أحدهم في صلاته: ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴾ المدثر / ٨ فخر ميتاً.

وبهذه الصلاة الخاشعة كان يختار ولاة الأمور وقادة المسلمين، ولم يعرف

الإسلام قائداً لا يقيم الصلاة.

فقد كان عمر يختار القادة لصلاتهم فالنعمان بن مقرن قائد معركة نهاوند المشهورة، لم يكن عمر يعرفه حين دخل المسجد رأى رجلاً يصلى صلاة خاشعة، فامتلأ به إعجاباً فسأل عمر : من هذا ؟ فقيل: هذا النعمان بن مقرن.

فقال : على به ... فلما جاء

فقال له عمر: قد انتدبتك لأمر عظيم

فقال الرجل : يا أمير المؤمنين إن كنت تريدنى لجمع الصدقات فإنى لا أصلح لذلك ، وإن كنت تريدنى للجهاد و الاستشهاد فى سبيل الله فإنى أصلح لذلك .

فقال عمر: بل أردتك للاستشهاد.

ثم ولاه إمارة الجيش ... فماذا صنع؟

لقد كانت أول أعماله أن طلب من الجند أن يتوضأوا ... ليصلوا قبل المعركة وبعد الصلاة أمرهم برفع الأيدى قائلاً لهم : أيها الناس إنى داع فأمنوا.

فبماذا دعا النعمان ؟ أدعا بالنصر فى المعركة حتى لا يحرج موقفاً أمام عمر؟

كلا... ما كان لنفس تقيم الصلاة متصلة بربها أن تراعى المخلوق وهى مع الخالق ، بل قال : « اللهم ارزق النعمان استشهاداً فى سبيلك يفتح به على المسلمين ».

والتحم الجيشان ويمر عليه : معقل بن يسار ، ويسأله النعمان وهو ينزف الدماء ويحتضر :

هل تم النصر؟ قال معقل : نعم فقال : الحمد لله ... ثم فاضت روحه .

ومن ثم كانت آخر كلمات الرسول ﷺ فى الدنيا قبل رحيله : « الصلاة...الصلاة ».

٢- الجود:

وليس الجود بالمال فحسب بل الجود بالوقت فى سبيل الله مواساة وإغاثة ودعوة، والجود فى سبيل الله نشراً لدين الله ، و الجود بالقرآن فى سبيل الله تعليماً للناس ، وهكذا تتقلب هذه النفوس مع الجود إلى أن تجود بأغلى ما تملك وهى نفوسها التى بين جنبيها، وبالأرواح و المهج تقدمها إلى خالقها استشهاداً فى سبيله ، وتتذكر دائماً أن رسول الله ﷺ كان أجود من الريح المرسلة وكان أجود الناس.

فهذه النفوس تنفق من مال الله الذى رزقها ، ومن هذا الاعتراف بأن الرازق هو الله، وأن المال مال الله ، تنطلق أبواب البر و الجود .

ففى ضوء الآية يقول تعالى : ﴿ ... ومما رزقناهم ينفقون ﴾ البقرة / ٣ .

فقدم الجار و المجرور لتأكيده هذا المعنى وجاءت ﴿ ما ﴾ دليل رحمة الله بهم فهو يطالبهم ببعض ما رزقهم وبجزء مما رزقهم ، وذلك ليتحقق اعترافهم بجميل عطاء ربهم .

فيالها من بلاهة من هؤلاء المساكين الذين إذا رزقهم الله شيئاً من ملكه ظنوا أن لهم جزءاً فى ملك الله... أنسى هؤلاء أن الحياة ما هى إلا أرحام تدفع وأرض تبلع ، و الناجى من حقق عبوديته لله، و الخاسر من شرد عن طريق الطاعة.

ثالثاً: السماحة

ألا يليق بموكب المتقين، وتلكم النفوس القائدة أن تتم بهذه الصفة الحميدة ، حيث لا تعصب ذميم، بل اطمئنان إلى رعاية الله للبشرية فى توالى الرسل والرسالات بدين واحد، و لذلك فإنهم يغضبون عندما ينال من نبى كما يغضبون عندما ينال من محمد ﷺ ، يؤمنون بجميع الرسل ، ويؤمنون بجميع الأديان ، يقول ﷺ : « إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى ، كرجل بنى داراً وأكملها وأجملها إلا موضع بنة، فجعل الناس يطوفون بها ويقولون : ما أجملها وما أحسنها ، هلا وضع اللبنة... فأنا اللبنة وأنا خاتم الأنبياء» (رواه البخارى) .

وبعد

وبعد هذه الصفات للنفوس التقية يطيب لنا أن نسمع ماذا قال عنهم صاحب الظلال

يقول سيد قطب:

« وهذه كانت صورة الجماعة المسلمة التى قامت فى المدينة يوم ذاك، مؤلفة من السابقين الأولين من المهاجرين و الأنصار ، ومن ثم صنع الله بهذه الجماعة أشياء عظيمة فى الأرض ، وفى حياة البشر جميعاً...

ومن ثم كان هذا التقرير :

﴿ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ البقرة / ٥ .

«وكذلك اهتدوا وكذلك أفلحوا ، والطريق للهدى و الفلاح هو هذا الطريق المرسوم ». (الظلال ج ١ ص ٤١) .

نعم هذه النفوس مستمرة فى الحياة وتتكرر فى عصور مختلفة وأماكن مختلفة كذلك ، وليست بدعاً فى أن تتحقق، وما تحققت على عهد رسول الله ﷺ وانتهت ،

بل هي مستمرة مكرورة وقد تكون بيننا اليوم بواقعها وموكبها ، وسر ذلك من الآيات أن الله تعالى استعمل الأفعال المضارعة :

﴿ يؤمنون - يقيمون - ينفقون - يوقنون ﴾

وذلك لأن الفعل المضارع يفيد الاستمرار و التكرار ، فهذا الركب الطيب من النفوس التقية ركب متجدد مستمر كلما مضى ركب تبعه ركب، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فطوبى لمن لحق بهم ، ويا بشراه من سار على دربهم ، واهتدى بفعلهم ، واتصف بصفاتهم ، وقال لنفسه:

يا نفس ويحك طال مـــا
أبصـــرت مـــوعظة ومـــا
نفـعـتك فـاخـشى وانتـهى
وعليك بالتـقـوى كـمـا
فـعـل الأناس الصـالحـون
وبـادرى فـالـرمـا
سلم المبـادر واحـذرى
يا نفس من سـوف فـمـا
خـدع الشـقى بمثلهـا

★★★